

المرأة المصرية والعلم - خلفية تاريخية

أ.د. رءوف عباس حامد

مصر من أرسخ بلاد العالم قدما في صنع الحضارة، بل أرسخها قدما في هذا المضمار، ولما كان بناء الحضارة لا يتحقق إلا بالإبداع العلمي والفنى، الذى يمثل إستجابة الإنسان لتحديات البنية الطبيعية، فقد قطع المصريون القدام شوطا طويلا على هذا الطريق، فكان إهنداء المصريين إلى الزراعة مفتاحا لإنجازات علمية تحققت في ميادين الفلك والرياضيات وهندسة الري، تاهيك عن المعجزة التى حققها المصريون في مجال الهندسة المعمارية التى لاتزال حتى اليوم شاهدا عدلا في وقفها الشامخة تتحدى الزمن، ونعنى بها الأهرامات والمعابد، فضلا عن براعة الفنان المصرى فى النحت وقدرته على التعامل مع أصلد المواد بأدوات متواضعة، ليعبر عن الأحاسيس الإنسانية فيما ينحت ويصور، بل كان لقدماء المصريين باع طويل فى الهندسة الميكانيكية، وإلا لما إستطاعوا رفع المسلات الجرانيتية التى يقدر وزنها بمئات الأطنان من محاجرها بجنوب البلاد إلى مواقعها فى مختلف أنحاء مصر شمالا وجنوبا، لتستوى فى تلك المواقع وتحكى للأجيال المتتالية عن عظمة المهندس المصرى القديم. ومساهمات المصريين فى ميدان الطب غنية عن التعريف، وتقدمهم فى علم التشريح لا يحتاج إلى دليل، وبراعتهم فى التحنيط لازالت تشغل بال علماء عصر الفضاء بأجهزتهم الدقيقة التى تمثل آخر ما وصل إليه العقل البشرى من تقدم تكنولوجيا.

ولم يتوقف عطاء مصر الحضارى المرتكز على أسس عملية على مر العصور، وما كانت مدرسة الإسكندرية فى العصرين البطلمى والبيزنطى إلا منارا للعلم والمعرفة يشع نوره فى مختلف أرجاء حوض شرق البحر المتوسط، حيث كان طلاب العلم والفلسفة والعلماء يحجون إلى مصر من بلاد اليونان ومختلف بلاد الشرق الأدنى القديم لينالوا قبسا من نور علم مصر. وذاع صيت الكثيرين منهم بفضل إنتمائهم إلى مدرسة الإسكندرية القديمة.

كذلك كان شأن مصر عندما إنضوت تحت لواء الإسلام، فلعبت دورا متميزا فى تاريخ الإسلام على مر القرون، فكانت محطا لرحال العلماء ومهدا لنشاط علمى واسع، ولمع فى جامعتها الإسلامية العتيدة (الازهر) علماء أجلاء برعوا فى الطب والكيمياء والفيزياء والفلك والرياضيات، فضلا عن الفلسفة والأدب وغيرها من المعارف الإنسانية.

ولم تخب جذوة العلم فى مصر فى دياجير ظلام التخلف الذى ران على بلاد الإسلام فى العصر العثمانى، إلا لتتقد من جديد مع مطلع القرن التاسع عشر، فعادت مصر إلى موقعها الريادى فى المنطقة المحيطة بها، وكانت المعبر الذى إنتقلت عن طريقه العلوم الحديثة إلى العالم العربى، ففقل جيل رائد من أبناء مصر المراجع الأساسية فى الطب والهندسة والفيزياء والكيمياء والرياضيات إلى لغة الضاد، وقدموا مساهمات ذات بال فى مختلف المجالات العلمية.

وإذا كان هذا شأن مصر عبر تاريخها المجيد الطويل، فلا ريب أن أبناءها قد ساهموا - رجالا ونساء - مساهمة إيجابية فيما قدمته مصر للإنسانية من عطاء حضارى، قام على إنجازات علمية خلدها التاريخ. ولم تكن المرأة المصرية أقصر باعا من الرجل فى هذا العطاء كلما أتاحت لها الفرصة المتكافئة للتعليم.

وللمرأة فى التراث التاريخى المصرى مكانة سامية، فقد كان أساس الأسرة المصرية يرتكز على نظام الأمومة، إذ كان الزوج يتبوا مركزا ثانويا فيها، على حين كانت الزوجة تحتل مركز الرئاسة فى تدبير شئون الأسرة، كما كان البيت وأثاثه ملكا لها، فإذا ماتت ورثها بناتها لا أبناؤها، لهذا كان زواج الأقارب محببا فى مصر القديمة، بل كانت وراثه العرش مقصورة على فرع الأمهات فى عصر ما قبل التاريخ، ولكنها حصرت فى الأبناء فى عصر الأسرة الأولى، ثم إعترفت الأسرة الثانية بحق النساء فى تولى الحكم، وبذلك إسترد البنات حقهن فى قصر وراثه العرش عليهن دون الأبناء، فلم يتول سنفرو - أول ملوك الأسرة الرابعة العظام - الحكم إلا لأنه تزوج بلبنة آخر ملك من ملوك الأسرة الثالثة. وإستمرت وراثه العرش للإناث حتى عصر الدولة الحديثة، فما كان تولى ملوكها العرش إلا مرهونا بالزواج من وريثاته الشرعيات.¹

وكان فرع الأم يوضع موضع الإعتبار الأهم فيما يختص بالنسب، فإذا انتسب الأبناء يذكرون أسماء اسلاف أمهاتهم لا أسلاف أبائهم، وكانت الممتلكات العقارية يرثها الأبناء عن الامهات.² وتمتعت المرأة فى القانون المصرى القديم بمكانه إجتماعية وقدر عن الإستقلال لم تعترف بهما الشرائع الإغريقية، فلم تكن تتزوج إلا بمحض إرادتها وبشروط كانت ثقيلة على الزوج إلى حد أنها كانت تجعل تعدد الزوجات أمرا متعذرا فى الواقع وإن كان مباحا من ناحية المبدأ. وكانت أيضا

¹ بترى، فلندر: الحياة الإجتماعية فى مصر القديمة، ترجمة حسن محمد جوهر وعبد المنعم عبد الحليم، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة 1975، ص 207 - 210.

² نفس المرجع، ص 221.

تستطيع الانفصال عن زوجها متى شاءت، وطالبته بالصداق الذي نص عليه في عقد الزواج، والتصرف في نفسها وفيما تملك دون قيد أو شرط.³

وإذا كان ذلك شأن المرأة في مصر القديمة، فلا بد أن تكون قد لعبت دورا هاما في الحياة العملية يتكافأ مع دورها في نواحي الحياة الأخرى، وإن كنا لا نعرف من النصوص والوثائق التي وصلتنا إلا شذرات من المعلومات عن إناث كن يعرفن الكتابة والقراءة ويشاركن في النشاط الثقافي، ويتدقن الأدب ويتراسلن به، بل تولت إحدى السيدات مهمة الكتابة الرسمية للملكة، وكان لإحدى الأميرات كتابات في القضاء والإدارة وشئون الحكم، واشتهرت إحدى الملكات بلقب "العارفة" (أو العالمة)، وتولت إحدى السيدات مهمة تنقيف أبناء الأمراء الأجانب الذين كانوا يتلقون العلم في مدرسة البلاط الفرعوني. وأشارت الوثائق - كذلك - إلى نساء من أوساط الناس تراسلن مع بعضهم البعض بأسلوب رفيع ينم عن ثقافة وطّلاع.⁴

كذلك كانت هناك كاهنات من النساء يخدمن في المعابد، ولما كان للكهنة باع طويل في العلم، وبراعة مشهودة في التحنيط، فلا ريب أن الكاهنات أصبن من العلم قدرا لا بأس به، وشاركن فيما يرتبط بالمعابد من نشاط علمي.

ولا أدل على إرتباط المرأة في مصر القديمة بالثقافة ومساهمتها فيهما من تلك الوثيقة التي يحدثنا فيها موظف يدعى "خنوم ردى" كان أمينا لمكتبة سيدة عظيمة القدر تدعى "نفرو كايث" فيقول: "هذه السيدة قد عينتني قيما على خزائن الكتب الخاصة بأهمها، وكانت مولعة بالعلوم والفنون، وقد زدت في عدد ما تحويه المكتبة من كتب، وجلبت لها كثيرا من المؤلفات القيمة حتى لم تعد تتسع لأكثر من ذلك، وقمت بترتيبها أحسن ترتيب، وربطت منها ما كان مفككا."⁵

ورغم أن المرأة المصرية فقدت بعض ما كانت تتمتع به من حقوق قانونية في العصرين البطلمي والروماني، إلا أن مكانتها الاجتماعية لم تتأثر بذلك، فظلت الحقوق التي كفلها العرف للمرأة المصرية سائدة. وجاء الإسلام إلى مصر في القرن السابع الميلادي ليؤكد لها، فاستردت المرأة المصرية حقها في الميراث الذي فقدته في العصرين الروماني والبيزنطي، وأصبح لها حق التملك، بل وحق التعليم، ففرض عليها الإسلام طلب العلم كما فرضه على الرجل، إذ سوى الإسلام بين المرأة والرجل في الأمور الروحية والواجبات الدينية، ولم يفرق العلم بينهما في العلم والتعلم، إذ يقول الرسول الكريم: طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة.⁶

ورغم وفرة المادة العلمية حول مساهمات الرجال من علماء المسلمين في العلوم الطبيعية والتطبيقية، إلا أننا لا نجد ما يشير إلى نساء ساهمن بجهدهن في تلك المجالات ولكن لدينا معلومات كافية عن دور المرأة في العلوم الإنسانية وخاصة العلوم الشرعية، فتحدثنا المصادر عن نساء كن - كما سنرى - ثقات في الفقه وعلوم اللغة والأدب، تلقين العلم على كبار علماء زمانهن، وقصدهن الطلاب للاستفادة بما لديهن من معرفة، بل كان بعضهم أساتذات لعلماء ذاع صيتهم فيما بعد.

وكان للمرأة شأن كبير في الدولة الفاطمية، فكن يتدخلن في شئون الحكم، واشتهر بينهن الكثيرات بالثراء والبذخ ورعاية العلم والعلماء، ولكن ذلك لا يعكس حال المرأة في مصر في ذلك العهد، فلم يظهر بين عامة الناس نساء كان لهن أثر في الحياة السياسية والثقافية، وظل ذلك وقفا على نساء الخلفاء والأمراء وغيرهن من نساء الصفوة الحاكمة.

وقد عوملت النساء في عهد الخليفة الحاكم بأمر الله معاملة تنطوي على القسوة والعنف، فمنع النساء من الخروج من المنازل أو الظهور من أعلاها، ومن دخول الحمامات العامة، ومنع صناعات الأحمية من صناعة أحمية للنساء، إلى غير ذلك من تصرفات أثرت على نشاط المرأة في ذلك العهد.⁷

ولكن تلك الصورة القاتمة كانت عابرة وليست أصيلة، فقد تسلم الفاطميون مصر وبها حركة فكرية تجوز طورا من أطوار قوتها، إذ كانت الدولة الإخشيدية (التي إستخلص الفاطميون منها تراث مصر) نصيرة للعلوم والآداب، ونبغ في ظلها عدد وافر من العلماء والعالمات. وازدهرت هذه الحركة الفكرية في عهد الدولة الفاطمية بقيام جامعة الأزهر، وتأسيس "دار العلم"، وتشجيع الطلاب والعلماء وإجراء الأرزاق عليهم، وعقد مجالس المناظرة بينهم، والإنفاق على معاهد التعليم المختلفة، وتزويدها بما تحتاج إليه من كتب وأدوات.

وكان للمرأة المصرية نصيب كبير من العلم في ذلك العصر، فقد كانت تعقد حلقات علمية خاصة للنساء بالجامع الأزهر وغيره من المراكز التعليمية، كان الهدف منها سياسيا، وهو نشر الدعوة الشيعية بينهم، ولكن تلك الحلقات تضمنت قدرا لا يأس به من مختلف العلوم اللغوية والدينية، كل ذلك في إطار الدعوة الشيعية الفاطمية، فلم يكن للدارسين والدارسات حق التفكير الحر أو الترويج لأفكار جاهضة للمذهب الشيعي، وإلا تعرضوا للإضطهاد والقتل.⁸

³ إبراهيم نصحي: مصر في عصر البطالمة، تاريخ الحضارة المصرية، ج2، ص 62 - 63.

⁴ عبد العزيز صالح: التربية الثقافية، المرجع السابق، ج 1، ص 188.

⁵ وليم نظير: المرأة في تاريخ مصر القديم، دار القلم، القاهرة 1965، ص 20.

⁶ محمد عطية الأبراشي: مكانة المرأة في الإسلام، ص 17.

⁷ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية، القاهرة 1958، ص 645 - 647.

⁸ خطاب عطية على، التعليم في مصر في العصر الفاطمي، ص 216 - 217.

ولا نجد في المصادر ما يشير إلى وجود مدارس خاصة لتعليم النساء في العصريين الأيوبي والملوكي، حقيقة وجدت الربط الخاصة بالنساء (وهي مؤسسات خيرية لرعاية من لا عا تل لهن)، ولكن لم يرد ذكر ما يفيد أنهن كن يشتغلن فيها بطلب العلم. ولذلك يمكننا القول أن تعليم المرأة في هذين العصرين كان يتم بالمنزل، وكانت بنات العائلات الموسرة أسعد حظا، حيث يرتب لهن ذورهم المعلمين من مشاهير العلماء بمصر والشام ليتلقوا عنهم العلم في بيوتهن، وقد ترجم السخاوى في كتابه "الضوء اللامع لأهل القرن التاسع" للكثيرات من العالمات اللاتي نبغن في الفقه وعلوم اللغة والحديث، وانفع بعلمهن الكثير من الطلاب. فيذكر السخاوى ان عائشة بنت علي كانت من أكبر المحدثات في عصره وحضر دروسها الأئمة، أما هاجر بنت محمد فكانت أدق المشتغلين بعلم الحديث إسنادا، وتزاحم عليها طلاب الحديث من مصر وغير مصر من بلاد الإسلام. وكانت أم هانئ الهورينية تشتغل بعلم الحديث أيضا، وسمع عليها الفضلاء.

ومن النساء من إحترفن التدريس في ذلك العصر وتفاضين أجورا على ذلك، فتذكر لنا المصادر أن هاجر بنت محمد كانت فقيرة تستعين على أسباب العيش بما تحصل عليه من طلابها، بل ربما طلبت المزيد. كذلك إحترفت زينب بنت علي التدريس بعد وفاة زوجها فاشتغلت معلمة خاصة للبنات في بيت صلاح الدين بن الجيعان. ورتبت الموسرات من العالمات حلقات دراسية في بيوتهن حضرها علماء العصر عندئذ كالسيدة ألفت بنت القاضي علم الدين صالح البلقيني التي نظمت حلقة دراسية دورية في بيتها.

على ان هذا النشاط العلمى النسائى فى العصرين الأيوبي والملوكي لم يكن مقتصرًا على القاهرة وحدها، بل إمتد إلى المدن المصرية الأخرى، فكانت هناك نساء ذائعات الصيت فى العلوم الشرعية بالإسكندرية وأسيوط وغيرهما من حواضر مصر.

وكما حظى العلماء والفقهائ برعاية السلاطين والأمراء، نالت العالمات نفس الخطوة والرعاية، فقد شمل السلطان الظاهر جقمق برعايته السيدة باى خاتون بنت السبكي التي كانت عالمة شامية، فاستدعاها إلى مصر لينتفع الناس بعلمها وأغدق عليها، كذلك إستقدم سلطان آخر الشيخة الصالحة ست الوزراء إلى مصر لما إشتهرت به من تبحر فى علم الحديث لتعليم النسوة العلوم الشرعية، ووفر لها الراحة بعد ان تقدمت بها السن.

وليس أدل على الدور الذى لعبته المرأة فى الحياة العلمية فى مصر الإسلامية وعلى نجاحها فى ذلك، بل وتفرد بعض النساء العالمات أحيانا، مما يقرره العالم المؤرخ شمس الدين الشخاوى من أنه قد تلقى العلم على يد خمس -على الأقل- من عالقات زمانه (القرن الثامن الهجرى الموافق للثالث عشر الميلادى).⁹

ومن بين من ترجم لهن السخاوى من عالقات عصره أمانة بنت الشيخ الشمسى محمد الرشيدى، التى تتلمذت على أبى هريرة بن الذهبى وأبى الخير بن العلائى وكلاهما كان عالما بارزا، ثم قامت بتعليم عدد من طلاب العلم رجالا ونساء. وعالمة اخرى هى أمانة بنت موسى تعلم على يدها السخاوى نفسه، ويصفها بأنها "كانت خيرة أصيلة"، وأنها ظلت تخدم العلم حتى ماتت وقد جاوزت المستين عاما. كذلك تعلم السخاوى على يد أستاذة أخرى هى ألفت بنت عبد الله الكنانى التى تعلم على يديها الكثير من "الفضلاء" وكانت فقيهة فى المذهب المالكي. وتتلمذ السخاوى كذلك على أمة الخالق بنت الزين العقبى، التى كانت "صالحة كاتبة فاضلة"، تخصصت فى علم القراءات والنحو. أما عائشة بنت أبى بكر الملقبة بأمة الخير فكانت دعوية فى طلب العلم على كبار علماء دمشق والقاهرة والإسكندرية، ولم تكن تقبل من التلاميذ إلا النجباء، ولذلك كان عدد تلاميذها محدودا. ومثلها أم عبد الله عائشة بنت علي التى تتلمذت على علماء مصر والشام، وكان من بين تلاميذها بعض الأئمة، وسعى إليها جمع غفير من الطلبة "وأخذ عنها غير واحد من الأعيان"، وكانت متبحرة فى السيرة النبوية والتاريخ الإسلامى والحديث، وقال عنها البقائى: كتبت الكتابة الحسنة، وكانت من الذكاء على جانب كبير، تطالع كتب الفقه وتفهم، وتحفظ شعرا كثيرا... وكانت خيرة من صباها إلى أن توفيت "ولم ينتفع بعلمها أهل مصر وحدهم، بل كان من بين تلاميذها بعض الشوام. أما فاطمة بنت الشص محمد بن يوسف الصائغ، فكانت من كبار علماء القراءات وذات باع طويل فى الفلسفة والتصوف.¹⁰

ويتضح من ذلك أن الحياة العلمية الإسلامية لم تعرف التميز بين الجنسين فكما كان للنساء حق التردد على المساجد للصلاة، كان لهن حق حضور مجالس العلم بالمساجد أسوة بالرجال، بل كان لهن - كما رأينا- حق التدريس. وكان حضور النساء لمجالس العلم مع الرجال جنبا إلى جنب أمرا مألوفا فى المجتمعات الإسلامية فى العصور الوسطى، طالما كانت تلك المجالس تعقد بالمساجد. ولم يحل المجتمع الإسلامى بين المرأة وبين التصدر للتعليم وبلوغ مرتبة الأستاذية، ولم يجد العلماء من الرجال حرجا فى ذكر من درسوا عليهم من النساء العالمات اللاتي كن يتخذن من بيوتهن الخاصة أماكن للتدريس لطلابهن بإذن من أزواجهن¹¹، مما يدل على ما كان يخطى به طلب العلم من تقدير إجتماعى كبير فى ذلك العصر.

⁹ عبد الغنى محمود عبد العاطى، التعليم فى مصر زمن الأيوبيين والمماليك، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب جامعة القاهرة، ص 258.

¹⁰ السخاوى، شمس الدين: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج 12، ص 2 - 106.

¹¹ محمد عبد الرحيم غنيمه: تاريخ التعليم الجامعى فى الإسلام، رسالة دكتورة غير منشورة، كلية الآداب جامعة القاهرة، ص 108.

ولكن الحركة العلمية والفكرية في مصر وغيرها من بلاد العالم العربي أصيبت بالجمود والضحالة في العصر العثماني، يرجع ذلك الجمود إلى الظروف التي شهدتها الوطن العربي في الحقبة التي أعقبت التحديات الخارجية التي تعرضت لها المنطقة (الحركة الصليبية والغزو المغولي)، وما ترتب على ذلك من إغلاق باب الإجتهد خشية تسرب ما يضر بالعقيدة الإسلامية إذا ما ترك باب الإجتهد مفتوحاً. ولما كان الإجتهد في الدين قد أصبح محرماً، فلا إجتهد في أمور الدنيا، هكذا طرح المنهج العقلي - أداة الإجتهد- الذي كان وراء تلك الإنجازات العلمية الرائعة التي قدمها علماء المسلمين في عصر الإبداع. وأصبح علماء المسلمين يعتقدون أن ما أبدعه "السلف الصالح" يمثل نزوة لا يستطيع بلوغها أحد، فضلاً عن تجاوزها الذي يعد التفكير فيه - مجرد التفكير- من ضروب المحال، وأن كل ما يستطيعونه هو إعادة صياغتها وشرح الغريب من ألفاظها فاتجه العلماء إلى التقليد وقاوموا كل محاولة للابتكار والتجديد، واعتبروا مثل تلك المحاولات محمول هدم لما بناه "السلف الصالح" يرمى أصحابها بالزندقة والإلحاد.

كما انتشرت بين المسلمين روح التعصب المذهبي والطائفي، كإخلاف بين الفقهاء والمتصوفة، وبين السنة والمعتزلة، وبين السنة والشيعة، وإخلاف بين المذاهب السنية الأربعة وبعضها البعض. وبدلاً من أن تؤدي هذه الخلافات إلى ظهور نهضة فكرية، أدت إلى تخلف المرأة وظهور الآراء التي نادى بتحريم خروج المرأة من عقر دارها، وأن عليها ألا تبرح خدرها، فحرمت من تلقى العلم في المساجد، بل حرمت من ممارسة شئونها الخاصة إلا من خلال رجل من أهلها، كما حرم على النساء قراءة القرآن أو الاستماع إليه فيما عدا سورة النور حتى يتعظن بما يتهدد الكافرين من العقاب. وإجمالاً، هيبت المكانة الإجتماعية الإنسانية السامية للمرأة، والتي كانت أصيلة في تراث مصر التاريخي لتصبح المرأة في منزلة السوائم، وتتحول من شريك للرجل إلى إحدى مقتنياته، ومن مربية ومعلمة له إلى أداة لمتعته.¹²

وهكذا لا نجد للمرأة ذكراً بين (علماء) العصر العثماني بعدما تبدلت القيم الإجتماعية في عصر التخلف، وحتى أولئك العلماء كانوا مجرد شراح ونقلة لأفكار الأجيال السابقة عليهم، ولم يسمح للمرأة إلا بحفظ القرآن سماعاً على مقرئ تستأجره الأسرة لهذا الغرض دون أن يتطرق ذلك إلى تفسير ما تحفظ، ودون أن تتعلم القراءة والكتابة صيانة لعفتها حتى لا ترسل أحدًا من الرجال. ورحم الله زماناً كانت فيه المساجلات والمحاضرات العلمية سجلاً بين العلماء والعالمات، وكانت السلطة ممثلة في الخلفاء والسلاطين والأمراء تثير المبررات من النساء في ميادين العلم والمعرفة !!

واحتاج المجتمع المصري -الذي عاش العصر العثماني يجترماضيه ويعمى عن حاضره- إلى صدمة ثقافية عنيفة تمثلت في الحملة الفرنسية التي دهمت مصر مع غروب شمس القرن الثامن عشر وبزوغ فجر القرن التاسع عشر، أيقظت المجتمع الإسلامي كله - في مصر وغير مصر- من سباته العميق، فتحت أعين الناس على حقيقة تخلفهم، وعلى مدينة جديدة ذات أفكار ونظم ومنجزات لا عهد لهم بها، فأدركوا مبلغ ما فاتهم من التقدم، وأحسوا بالبون الشاسع بينهم وبين "الفرنجية"، وتحولت نظرتهم إلى الغرب من شعور بالاستعلاء (ترسب في أعماق الوجدان العربي منذ أيام الحروب الصليبية) إلى عقدة نقض لآزمتهم على مر القرن التاسع عشر، ولكنها دفعتهم إلى محاولة سد فجوة التخلف بقدر ما لديهم من طاقة، ونسجت هذه المحاولة تاريخ مصر الحديث.

وإذا كان بعض الكتاب¹³ يرى أن حركة تحرير المرأة في مصر تمتد جذورها إلى سنوات تلك الصدمة الثقافية (عهد الحملة الفرنسية)، إستناداً إلى ما ذكره الجبرتي من تقليد بعض النسوة لفساء الفرنسيين في الملابس ومجاراتهن لهن في السلوك، فإن ذلك الإستنتاج يجانبه الصواب، فالجبرتي نفسه يشير إلى نفور الناس من مسلك تلك القلة من القاهريات، ويلمح إلى أنهن كن طسلاً من محترفات البغاء، ولا يمكن -منطقياً- أن تتغير قيم إجتماعية سادت نحو أربعة قرون ورسخت في بنية المجتمع خلال تلك السنوات الثلاث التي مكنتها الحملة الفرنسية في مصر، وإحتاج الأمر إلى قرن كامل للتخلص من الثقافة التي حبست المرأة في قصص الحريم، ولكن رويدا رويدا. وما كادت تطوى صفحة القرن التاسع عشر، حتى كانت صيحة إطلاق المرأة من عقالها إنعكاساً للتغير الإجتماعي الذي أصاب مصر على مر ذلك القرن، والذي أتاح للمرأة المصرية قدراً من التعليم، ونصيباً متواضعاً من المشاركة في النهضة العلمية الحديثة.

ورفاعة رافع الطهطاوى -رائد الفكر المصري الحديث- كان أول من تناول وضع المرأة في المجتمع المصري في القرن التاسع عشر، فضمن كتابه "المرشد الأمين للبنات والبنين" دراسة لدور المرأة في المجتمع المصري، أكد فيها على أن المرأة لا تختلف عن الرجل في التفكير والقدرات وإنما تخلف عنه في الجنس وحسب، وأن المرأة قد خلقت لأداء مجموعة من الواجبات الأساسية، فقد " خصهن الله سبحانه وتعالى دون الرجال بتدبير المعاش الأولية، والقيام بالأشغال الضرورية والمتاعب المعاشية، ومباشرة فراش المرضى من الأزواج والأولاد وغيرهم، وتخفيف الألام والأسقام، وبالإضافة إلى الواجبات الإجتماعية، رأى الطهطاوى أن للمرأة دور هام في إعداد المواطن الصالح، ومن ثم كان لها الحق في التعليم حتى تحسن أداء وظيفتها التربوية، لأن "آداب المرأة ومعارفها تؤثر كثيراً في أخلاق أولادها" إذ أن "البنات الصغيرة متى رأت أمها مقبلة على مطالعة الكتب وضبط أمور البيت... جذبتها الغيرة لأن تكون مثل أمها". كذلك يجب أن يكون للمرأة الحق في العمل، لأنه " يمكن للمرأة عند اقتضاء الحال أن تتعاطى من الأشغال والأعمال ما

¹² اجلال خلفية: الحركة النسائية الحديثة، قصة المرأة العربية على أرض مصر، القاهرة 1973، ص 12 - 13.

¹³ انظر على سبيل المثال / لويس عوض، تاريخ الفكر المصري الحديث، ج 2 كتاب الهلال، ص 32. واجلال خلفية، المرجع السابق، ص 16.

يتعاطاه الرجال على قدر قوتها وطاقتها"، فهو يرى أن " العمل يصون المرأة عما لا يليق ويقربها من الفضيلة، وإذا كانت البطالة مذمومة في حق الرجال فهي مذمة عظيمة في حق النساء".¹⁴ وتضمنت كتابات الطهطاوى إشارات حول تعدد الزوجات توحى باتجاهه إلى تقييد هذا الحق الذى تمتع به الرجل دون إكتراث بالشروط الشرعية المحددة له، كما خاص في قضية الطلاق وضمان حقوق المرأة في إطار قانونى يفسر الشريعة الإسلامية تفسير إيجابيا.

غير أن المجتمع المصرى الذى كبل المرأة بقيم إجتماعية بالية لما يزيد على أربعة قرون من التخلف الحضارى، لم يكن مهيا لتلقى مثل هذه الأفكار. ووقع على عاتق قاسم أمين إثارة قضية تحرير المرأة باعتبارها قضية ذات أبعاد إجتماعية وإقتصادية وخلقية.

فقد رأى قاسم أمين أن تحرير المرأة يعد حجز الزواية في النهوض بالمجتمع الإسلامى من وهدة التخلف، وأن سبب ما يعانیه المجتمع الإسلامى من تخلف يرجع إلى زوال الفضائل الإجتماعية، أى زوال " القوة المعنوية "، وذلك راجع إلى الجهل بالعلوم الحقيقة التى يمكن إستنباط قوانين السعادة البشرية منها وحدها. ويبدأ الجهل فى العائلة، فالعلاقة بين الرجل والمرأة، وبين الأم والولد، إنما هى أساس المجتمع، وما دور المرأة فى المجتمع إلا "إصلاح أخلاق الأمة"، ولكن المرأة تتمتع فى المجتمع الإسلامى- بالحرية والمكانة اللزمتين للقيام بدورها.

ورأى قاسم أمين أن ذلك لا يرجع إلى الإسلام فى حد ذاته، فالشريعة الإسلامىة هى أول قانون ساوى المرأة بالرجل إلا فى حالة تعدد الزوجات، ولذلك جاء الفساد إلى الإسلام من خارجه مع أولئك الذين إعتنقوه وجلبوا إليه "عاداتهم وأوامهم"، فهدموا النظام الإسلامى الأسمى الذى حدد واجبات الحكام والمحكومين، واستعضوا عنه بحكم القوة العاتية، فتفشى فى المجتمع بكامله إحتقار القوى للضعيف وامتهان الرجل للمرأة.

ومن ثم كان جوهر القضية عند مركز المرأة الذى لا يتحسن إلا بالتربية. ولم يقترح قاسم أمين أن تنتقف المرأة تنقيفا عاليا كالرجل، إذ أثر الإعتدال والحنز فى هذا الأمر وإنما نادى بأن لا يقل تحصيلها عن التعليم الإبتدائى للتمكن من إدارة منزلها كما ينبغي وتلعب دورها فى المجتمع. وعلى هذه التربية أن تتوخى إعداد المرأة لكسب الرزق، إذا أن هذا يحقق الضمان الوحيد لحقوق المرأة، فإذا ظلت غير قادرة على إعالة نفسها تبقى تحت رحمة الرجل، بصرف النظر عن أى حقوق تمنحها لها الشريعة.

جاءت كل تلك الأفكار التى طرح فيها قاسم أمين تصوره للنهوض بالمجتمع الإسلامى على أساس رفع القيود عن حق المرأة فى التعليم والعمل، فى كتاب صغير شهير بعنوان " تحرير المرأة " نشر عام 1899، فأتار عاصفة من النقد، وظهرت بعد صدوره ببضعة شهور سلسلة من الكتب والنشرات هاجم بعضها نظريته وأيدها البعض الآخر، وتجاوزت الكتابات المعارضة حدود آداب الحوار. وفى عام 1900، رد قاسم أمين على نقاده، بكتاب ثان حمل عنوان "المرأة الجديدة" عد فيه حرية المرأة أساسا لجميع الحريات الأخرى ومعيارا لها، فعندما تكون المرأة حرة يكون المواطن حرا، وما الحجج المستعملة ضد حرية المرأة سوى الحجج المستعملة ضد الحرية من أى نوع كانت (كحرية الصحافة مثلا)، وأكد على أن الحرية التى تتمتع بها المرأة الأوربية تقوم على مبادئ عقلية وعلمية ومن العبث تبنى علوم أوربا بدون الإقتراب من منهل مبادئها الخلقية.¹⁵

وبعض النظر عن مدى تقبل الناس لأفكار قاسم أمين، فقد أدى طرح تلك الأفكار والجدل الذى ثار حولها لفت الأنظار إلى ضرورة أن يكون للمرأة دورها فى بناء المجتمع الحديث. ولكن الحديث عن الموضوع كان قاصرا على أرباب الأقالام من الرجال، حتى السيدة الوحيدة التى شاركت فيه (ملك حفى ناصف) كانت تنتسز وراء إسم رمزى (باحثة البادية) وكانت تدافع عن بقاء الحجاب وتتكز المطالبة بإلغائه.

وإذا كانت الدعوة إلى إطلاق المرأة من عقالها قد ركزت على ضرورة الإعتراف بحقها فى التعليم والعمل، فقد شهد القرن التاسع عشر محاولات محدودة لفتح باب التعليم أمام المرأة المصرية حكومية وغير حكومية أنت أكلها عند نهاية القرن الماضى ومطلع هذا القرن.

وجاء أول اهتمام رسمى بتعليم المرأة فى عهد محمد على، عندما دعت الحاجة إلى إعداد المولدات (الحكيماوات) اللاتى يعالجن النساء ويقمن بالتوليد للقضاء على ظاهرة القابلات الجاهلات من ناحية، ولأن التقاليد كانت تحول دون المرأة واستشارة الأطباء من الرجال من ناحية أخرى فأسس محمد على مدرسة للحكيماوات إلى جوار مدرسة الطب بأبى زعيل، ولما كان الناس يرغبون عن إرسال بناتهم إلى المدرسة الجديدة، فقد إضطر الباشا - فى بداية الأمر- أن يشتري بعض الجوارى الحبشيات ليلحقهن بالمدرسة حيث يتعلمن اللغة العربية ويدرسن بها علم التوليد وطب النساء من كتاب فرنسى نقله قلم ترجمة إلى اللغة العربية، وألحق بالمدرسة مستشفى صغير يضم عشرين سريرا خصص لعلاج النساء.

¹⁴ الإقتباسات من المرشد الامين، ص53، 67، 66 على التوالى.

¹⁵ حول أفكار قاسم أمين راجع كتابية " تحرير المرأة " و " المرأة الجديدة " وانظر أيضا لويس عوص: المرجع السابق، ج 2، ماهر حسن فهمى: قاسم أمين، سلسلة أعلام الحرب.

وعندما نجحت التجربة، بدأ محمد على يلحق المصريات بالمدرسة. ومرة أخرى واجهت الحكومة مشكلة عزوف الآباء عن إرسال بناتهم إلى المدرسة، فاضطر محمد على إلزام بعض شيوخ القرى بإيفاد عدد من البنات البيتمات إلى تلك المدرسة، وإلى إلزام بعض جنود الجيش بإرسال بناتهم إليها، بذلك أصبحت مدرسة الحكيمات تضم ما يزيد على مائة طالبة من بينهن عشرين من القاهرة وأربعة طالبات من كل مديرية من مديريات مصر وبعض السودانيات والحبشيات.

وتولى كلوت بك -رائد التعليم الطبي الحديث في مصر- الإشراف على مدرسة الحكيمات، وتولت التدريس بها معلمة فرنسية، وأصبحت التلميذات تتعلمن اللغة الفرنسية إلى جانب العربية. وكانت برامج الدراسة تشمل على مايلي¹⁶:

- 1- اللغة العربية واللغة الفرنسية.
- 2- علم التوليد نظريا (باستخدام نموذج صناعي) وعمليا بمباشرة التوليد بالمستشفى الملحق بالمدرسة.
- 3- طرق الرعاية الطبية للحوامل والنساء اللاتي في حالة الوضع والأطفال المولودين حديثا.
- 4- طرق علاج الأمراض السرية للنساء.
- 5- مبادئ الجراحة الأولية لعلاج الأورام والالتهابات والكي وتضميد الجراح.
- 6- طرق الحجامة والتطعيم ضد الجدري ووضع اللزقات وأخذ كاسات الهواء.
- 7- مبادئ الصيدلية وتجهيز الدواء.

وبذلك أصبحت المدرسة تخرج الحكيمات المؤهلات تأهيلا علميا كافيا للقيام بهذا العمل.

وكانت مدة الدراسة ثلاث سنوات، واشترط فيمن يلتحق بالمدرسة أن يكن بين الثانية عشرة والثالثة عشرة من العمر، وأن ينجح في إمتحان القبول الذي تعقده لجنة من "ديوان المدارس" وجعلت الحكومة مكافأة شهرية تتقاضاها الطالبة خلال سنوات الدراسة، هذا بالإضافة إلى المأكل والملبس والإقامة. وتخرجت الدفعة الأولى من الحكيمات عام 1839، وعينت المتفوقات منهن مدرسات بالمدرسة نفسها برتبة الملازم الثاني، كما عينت بعض الخريجات الأخريات معيدات بالمدرسة حتى إذا ثبتت كفاءتهن للتدريس رقين إلى درة المدرس وحصلن على رتبتهن. أما باقي الخريجات فقد عين بالمستشفى الملحق بالمدرسة كما عين بعضهن بالمحاجر الصحية بالإسكندرية ودمياط، خصصت ثمان منهن للعمل بأقسام القاهرة الثمانية ليقمن بالكشف على الموتى من النساء، ومن الطريف أن الخريجات كن يحملن لقب "أفندي" أسوة بزملائهن خريجي المدارس الأخرى.¹⁷

وإذا كانت المدرسة قد أغلقت بعد عصر محمد على مع غيرها من المدارس المتخصصة، ونفضت الحكومة يدها من تعليم البنات، فإن فرصة التعليم كانت متاحة لبعض الفتيات المصريات المسيحيات وبعض المسلمات من بنات الطبقة الوسطى في مدراس الإرساليات التبشيرية الأجنبية التي بدأت تمارس نشاطها في مصر منذ أواخر عصر محمد على.

وكانت أول مدرسة خصصت للبنات هي تلك التي أنشأتها الإرسالية الإنجليكانية عام 1835 ثم جاءت جماعة الراعي الصالح فأنشأت أول مدرسة للبنات بها بالموسكى عام 1845، ومدرسة أخرى بشبرا عام 1861، وأنشأت الأخوات الفرنسيكان مدرسة للبنات عام 1875. وحظيت تلك المدارس الأجنبية بدعم وتشجيع محمد سعيد باشا والخديو إسماعيل من بعده.

وكان تأسيس مدراس البنات على يد البعثات التبشيرية مصدر قلق للكنيسة الأرثوذكسية المصرية، فأنشأت أول مدرسة قبطية خاصة للبنات عام 1860 بحارة السقاين، ثم تلتها مدرسة أخرى بالأزبكية. وحذت الجمعية الخيرية الإسلامية حذو الأقباط فأسست "مدرسة اليقظة الإسلامية للبنات" عام 1878.¹⁸

وإلى جانب هذه المدارس القليلة التي أتاحت قدرا من الثقافة للفتيات المصريات، كانت الأسر الأرستقراطية تنظم دراسة خاصة منزلية لبناتها على يد معلمات أجنبيات للغة الفرنسية والموسيقى ومعلمين من الرجال للغة العربية والتركية وعلوم الدين، وحصلت الكثيرات من بنات الطبقة المتأخرة على قدر كبير من الثقافة العصرية ولكن هذا كان إستثناء، فالسواد الأعظم من بنات مصر كان يتخبط في دياجير ظلام الجهل والامية.

وعاد الإهتمام الحكومى بتعليم البنات فى عهد الخديو إسماعيل ليفتح الباب أمام بنات الطبقة الوسطى لنيل نصيب من الثقافة فى مارس 1867 شكلت لجنة حكومية برئاسة ناظر المدارس الحربية للنظر فى شأن إقامة مدراس جديدة من بينها مدرسة للبنات تتسع لنحو خمسمائة فتاة على أن تبدأ بمائة فتاة كمرحلة أولى. غير ان المشروع لم ير النور بسبب الصعوبات المالية التى حالت دون تنفيذه ضمن خطة الحكومة التعليمية، وتولت الزوجة الثالثة للخديو (جشم أفت هانم) إقامة هذه المدرسة على نفقتها، واشترت لهذا الغرض قصرا قديما بالسيوفية وحولته بعد إصلاحه- إلى مدرسة للبنات تضم مائتى تلميذة بالقسم الداخلى ومائة تلميذة بالقسم الخارجى، وبدأت المدرسة عملها فى أول يناير 1873.

¹⁶ كلوت بك: لمحة عامة الى مصر، ج 2، ص 636 - 642.

¹⁷ إنظر: أحمد عزت عبد الكريم، تاريخ التعليم فى عهد محمد على الكبير، القاهرة 1936.

وأيضا: درية شفيق، تطور النهضة النسائية فى مصر، القاهرة 1945، ص 30 - 39.

¹⁸ إجلال خليفة: المرجع السابق، ص 99 - 101.

ولم يمض وقت على افتتاح مدرسة السيوفية حتى إشتد إقبال التلميذات عليها، كانت الدراسة فيها تجمع بين التعليم الأساسى (الابتدائى) والتعليم المهنى الذى يزود التلميذات بمهارات معينة تفيدهن فى حياتهن الأسرية وتتيح لهن كسب العيش إذا دعت الحاجة إلى ذلك. وكانت خريجات هذه المدرسة يستطعن إستكمال دراستهن بمدرسة التوليد الملحقة بالقصر العيني والتي عاد الإهتمام بها فى عصر إسماعيل. وكانت مدة الدراسة بمدرسة السيوفية خمس سنوات، تدرس فيها اللغتين العربية والتركية والتاريخ المصرى والجغرافيا والحساب والتدبير المنزلى والتاريخ الطبيعى ومبادئ الفزياء وبعض تطبيقاتها العملية، كذلك الحياكة والأشغال اليدوية، ثم أضيفت اللغة الفرنسية والموسيقى إلى مواد الدراسة فيما بعد.

وتراوحت أعمار تلميذات مدرسة السيوفية بين سبع سنوات وإحدى عشرة سنة، ويتم إختيارهن بعد اختبارات شخصية وطبية وكانت الدراسة بالمجان.

ويبدو أن نجاح جشم آفت هانم فى إنشاء مدرسة السيوفية أثار غيرة ضررتها أورطنجة هانم (الزوجة الثانية للخديو إسماعيل)، فأنشأت هى الأخرى مدرسة ثانية للبنات بالقرية بالتعاون مع ديوان الأوقاف كانت أصغر حجما من مدرسة السيوفية، إلتحقت بها مائة من التلميذات بالقسم الداخلى وخمسين تلميذة بالقسم الخارجى، ولكن الدراسة فيها كانت أقل من حيث المستوى عن الدراسة فى المدرسة السيوفية، وما لبثت الأزمة المالية التى عانت منها الحكومة أن دفعت ديوان الأوقاف الى سحب تمويله للمدرسة، فأغلقت أبوابها وضمنت تلميذاتها إلى مدرسة السيوفية.¹⁹

وأنت النهضة التعليمية فى عهد إسماعيل ثمارها، فظهرت بعض الشخصيات النسائية التى لعبت دورا فى الحياة العلمية، كانت فى مقدمتهن السيدة تمرهان التى نبغت فى طب النساء - وكانت من خريجات مدرسة التوليد- وأهلها نبوغها لتولى نظارة المدرسة التى تخرجت منها، ووضعت بعض المؤلفات الهامة التى ضمنتها خلاصة علمها وتجاربها، أصبحت مراجع هامة لتلميذات مدرسة التوليد كان من أهمها كتاب "محكم الدلالة فى أعمال القبالة" وطبع عام 1869، كما ساهمت فى تحرير المجلة الطبية التى كانت تصدرها الحكومة بعنوان "يعسوب الطب" بمقالات علمية عديدة عالجت الأمور المتصلة بالتوليد وطب النساء.²⁰

كما كان من خريجات مدراس البنات فى عهد إسماعيل من نبغن فى مجال الأدب والشعر كالسيدة عائشة عصمت التيمورية التى حفلت صحف العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر بقصائدها ومقالاتها الأدبية، وكانت تجيد اللغتين الفارسية والتركية إجادتها للغة العربية، وكان من بين أساتذتها السيدة ستيئة الطيلاوية والسيدة فاطمة الأزهرية، ولها ديوان بالتركية طبع باستا نيول وآخر بالعربية طبع بالقاهرة بعنوان "حلية الطراز" وكان لها مساجلات مع أدباء زمانها شهدت لها برسوخ القدم فى مجال الأدب.

وكانت السيدة زينب فواز من ألمع كتاب وأدباء الربع الأخير من القرن التاسع عشر والعقد الأول من القرن العشرين تعلمت النحو والصرف والبيان والعروض والتاريخ على يد حسن حسنى باشا الطويرانى صاحب جريدة "النيل" ونبغت فى تلك العلوم، وتجلت مواهبها فى قرص الشعر وصاغية النثر، وحفلت صفحات الجرائد والمجلات المعاصرة بمقالاتها العديدة التى تشهد لها بطول الباع فى مجال الأدب، وخاصة المناظرات القليلة التى دارت بينها وبين بعض الكتاب والأدباء حول تحرير المرأة الشريفة وتحقيق تقدمها الثقافى والاجتماعى، وترجمت للشهيرات من بنات جنسها فى كتاب لا يزال مرجعا هاما حتى اليوم حمل عنوان " الدر المنثور فى طبقات ربوات الخدور"، كما جمعت مقالاتها فى كتاب بعنوان "الرسائل الزينية"، وألفت ثلاث روايات أدبية هى: "حسن العواقب" و "الهوى والوفاء" و "الملك قورش"، بل ووضعت مصنفا فى تراجم مشاهير الرجال بعنوان "مدارك الكمال فى تراجم الرجال"، هذا بالإضافة الى العديد من الكتابات المتناثرة التى لم تجمع فى عمل واحد.²¹

وإذا كان الإحتلال البريطانى قد أغفل الإهتمام بالتعليم وأنقص عدد المدارس، وتوسع فى الأخذ بمبدأ تحمل المواطن لجميع نفقات تعليم أبنائه وقصر المجانية على المتفوقين فى التعليم الابتدائى فحسب، وحرص على بقاء برامج التعليم عند حدود متواضعة تفى بحاجة الجهاز الإدارى إلى الكتبة وصغار الموظفين، فلا تتوقع منه - إذا- أن يهتم بتعليم البنات، أو فتح باب المعرفة أمام المرأة.

وهكذا تحولت مدرسة السيوفية إلى "مدرسة السنية" عام 1889، واقتصرت التعليم فيها على بنات الطبقة القادرة على تحمل مصروفات الدراسة. غير أن الإقبال على مدرسة السنية، وعجزها عن قبول المتقدمات للإلتحاق بها، دفع الحكومة إلى إنشاء مدرسة عباس الأول للبنات عام 1895، ثم بدأت مجالس المديرىات منذ عام 1909 إنشاء مدارس ابتدائية خصص القليل منها للبنات، وأنشأت مدارس البنات الأولية والراقية عام 1916 وفى العام التالى إفتتحت أول مدرسة ابتدائية للبنات بالاسكندرية بحى محرم بك.

وفى أعقاب ثورة 1919 التى لعبت فيها المرأة المصرية دورا هاما، فطرحت الحجاب، وخرجت تتأصل من أجل الإستقلال، إزداد الإهتمام بتعليم البنات، فأنشئت أول مدرسة ثانوية للبنات عام 1920 (مدرسة الحلمية الثانوية) وتلتها

¹⁹ درية شفيق: المرجع السابق، ص 45 - 52.

²⁰ درية شفيق: المرأة المصرية من الفراغة الى يوم، القاهرة 1955، ص 85.

²¹ فتحية محمد: بلاغة النساء فى القرن العشرين، ص 87، 116.

مدرسة شبرا للبنات حيث حصلت منها ست فتيات على البكالوريا من القسم العلمي عام 1928. كذلك شهدت العشرينيات والثلاثينات من هذا القرن إفتتاح عدد من المدارس الأخرى التي تهدف إلى تزويد الفتاة المصرية بقدر من الثقافة النسوية تعدها لتكون ربة بيت صالحة مثل مدراس الفنون الطرزوية (عام 1925) ومدراس الثقافة النسوية (عام 1937)، ومدارس التربية النسوية (1938)، بالإضافة إلى المدراس المهنية كمدرسة المموضات والقابلات، ومدرسة التجارة، ومدرسة الزائرات الصحيات، ومدارس المعلمات ومعهد الخدمة الاجتماعية.²²

وعرفت المرأة المصرية طريقها إلى التعليم العالي منذ إنشاء الجامعة المصرية الأهلية (1908- 1925)، فقد أنشأت الجامعة قسما نسائيا تلقى فيه محاضرات حرة في الفلسفة وعلم النفس والأخلاق والتربية للراغبات من النساء، وتولى إلقاء المحاضرات عدد من رائدات الثقافة في مصر، نذكر منهنم نبوية موسى التي حاضرت في تاريخ مصر وتقدم العلوم الحديثة، وليبية هاشم – صاحبة مجلة "فتاة الشرق" – وتحدثت عن التربية والأخلاق، ورحمة صروف التي ألقت عددا من المحاضرات في شؤون التدبير المنزلي، ومملك حنفي ناصف التي حاضرت في حقوق المرأة وواجباتها وموقف الإسلام من ذلك. وساهمت بعض الأجنبيات في برامج الدراسة في القسم النسائي بالجامعة المصرية، كما ألقى بعض الأطباء المصريين والأجانب على الدارسات محاضرات في الصحة العامة ورعاية الأطفال، وكان من بين من إنتظم في القسم النسائي سيدات شهيرات كهدى شعرواي وصفية زغلول (زوجة الزعيم سعد زغلول) وفاطمة نعمت راشد وغيرهن من بنات الأسر الثرية والمتوسطة.

ومن الغريب أن إنشاء القسم النسائي بالجامعة ووجهه بمعارضة شديدة من جانب المحافظين، لأنهم رأوا في خروج المرأة إلى الجامعة تجاوز للأدب وخروج على الخلق القويم ومساس بالعفة والشرف، وأرسلوا خطابات تهديد بالقتل إلى عبد العزيز فهمي بك سكرتير الجامعة إن لم يضع حدا لهذا البدعة، ويبدو أن المعاضة الرجعية كانت أقوى من أن تقاوم، فاضطر مجلس الجامعة المصرية إلى اتخاذ قرار بإغلاق القسم النسائي إعتبارا من العام الدراسي 1912 – 1913.²³

وعندما تحولت الجامعة المصرية إلى جامعة حكومية عام 1925، وتولى إدراتها المفكر الكبير أحمد لطفي السيد رائد اللبرالية في مصر تجددت آمال الفتاة المصرية في ولوج باب التعليم الجامعي، وبالفعل تقدمت بعض الفتيات -اللاتي حصلن على البكالوريا عام 1928- بأوراقهن إلى الجامعة، فرأى أحمد لطفي السيد أنه اذا تقدم إلى الحكومة طالبا السماح بقبول الطالبات في الجامعة، لفت أنظار جماعة الرجعيين وتكررت مأساة القسم النسائي بالجامعة الأهلية، فعمد إلى طريقة تنطوى على كثير من اللباقة ليبتسر قبولهن دون إثارة الانتباه إلى ذلك، فطلب من أمانة الجامعة ألا تشتترط في القبول إلا الحصول على البكالوريا دون تحديد لجنس الطالب، وبذلك قبلت الجامعة خمس فتيات في ذلك الحين.²⁴ وكذلك فعلت جامعة الإسكندرية عند تأسيسها عام 1942.

وزاد عدد طالبات الجامعة بعد تخرج الدفعة الأولى منهن فبلغ 165 طالب عام 1935، وقد عدد الحاصلات على شهادات عالية من مصر والخارج في تعداد 1937 بـ 1979 خريجة وفي تعداد عام 1947 بلغ عددهن 4033 خريجة²⁵، واستمرت أعداد الخريجات في تزايد مطرد حتى أصبح لدى مصر عدد عظيم من الخريجات في مختلف ميادين العلم. وكانت كلية الطب في طليعة الكليات التي فتحت أبوابها أمام الطالبات، فالتحقت بها خمس فتيات عام 1928، وتبعته كلية الآداب وكلية الحقوق عام 1929، ثم كلية التجارة عام 1936، والهندسة والزراعة عام 1945، والطب البيطري عام 1947، ودار العلوم عام 1953، والأزهر عام 1965.²⁶

وكان حصاد نصف القرن من التعليم الذي أتيح للمرأة المصرية - بقدر محدود- بروز العديد من الشخصيات العلمية النسائية التي ساهمت في النهضة العلمية والثقافية التي شهدتها مصر على مر النصف الأول من هذا القرن، ولعل إلقاء نظرة على الرائدات من بين تلك الشخصيات النسائية يعطينا فكرة عن عطاء المرأة المصرية في المجالات العلمية والثقافية.

وتأتى السيدة مملك حنفي ناصف في مقدمة من كان لهن فضل الريادة في الحياة العلمية من نساء مصر في نصف الأول من هذا القرن. وكانت من خريجات القسم العالي بالمدرسة السنوية، وإشتغلت بالتدريس بمدارس البنات، ثم تفرغت للقراءة والكتابة ودارسة مناهج التعليم محاولة التوصل إلى مناهج دراسية تصلح أساسا لتعليم المرأة المصرية، وأقامت من بيتها منتدى تقصده السيدات المصريات والأوربيات، يتباحثن فيه في المسائل العلمية والثقافية، وينظرن في أحسن السبل للنهوض بالمرأة الشرقية.

²² زينب محود محرز: تقرير عن تعليم الفتاة في الجمهورية العربية المتحدة، القاهرة 1968 المقدمة.

²³ عبد المنعم الجميلى: الجامعة المصرية القديمة، نشأتها ودورها في المجتمع 1908 – 1925، القاهرة 1980، ص 46 – 48.

²⁴ درية شفيق: تطور النهضة النسائية، ص 86.

²⁵ اجلال خلفية: المرجع السابق، ص 125.

²⁶ نفس المرجع، ص 126.

وكانت ملك حنفي ناصف ترى أن يراعى في تربية المرأة تأهيلها لأن تياشر من أعمال الرجل مالا ينافي الشرع الإسلامي، وكانت تخطب في المحافل النسائية تدعو بنات جنسها إلى التخلص من الجمود والتخلي عن الأفكار البالية والأخذ بأسباب التقدم. وقدمت إلى المؤتمر المصري (إبريل 1911) تقريرا ضمنته آرائها في وسائل النهوض بالمرأة المصرية، وأكدت على مساواة المرأة للرجل في الإدراك، وقدرتها على الإضطلاع بما يلقى عليها من أعباء كالرجل سواء بسواء لو أعدت الإعداد التربوي على نحو ما يعد الرجال.

وكانت ملك تجيد الإنجليزية والفرنسية إجادتها للعربية وتكتب وتحاضر بهما، وكانت ترسل عددا من الأدبيات الأوربيات والأمريكيات المعاصرات لها. ونشرت مقالات أدبية وسياسية بصحف مصر أوائل هذا القرن، وخاصة في "الجريدة" و"الشعب" ونشرت كتابان أحدهما بعنوان "النسائيات" جمعت فيه مقالاتها التي نشرت تباعا بالصحف، وثانيها بعنوان "حقوق النساء" قارنت فيه بين المرأة الشرقية والمرأة الغربية، وطالبت بأن تعطى للمرأة الشرقية حقوقها السياسية، وأن يعترف بحقها في العمل. وكانت تفرض الشعر وهي في الحادية عشرة من عمرها، واختارت لنفسها إسما مستعارا توقع به مقالاتها هو "باحثة البادية" تمثيا مع التقاليد التي كانت تعد اسم المرأة (عورة) لا يجب أن تكشف، ولكنها عالجت تحت هذا الاسم المستعار أخطر القضايا الاجتماعية والفكرية ونزلت بقلمها أنصار الرجعية، وإن كانت قد أيدت بقاء الحجاب إلا أنها طالبت بإطلاق الطاقات العقلية للمرأة من عقالها، وتصحيح وضعها الاجتماعي²⁷.

أما لبيبة ناصيف، فقد عاصرت ملك وبرعت مثلها في صناعة القلم وإجادة اللغتين الإنجليزية والفرنسية، وأصدرت عام 1906 مجلة نسائية بعنوان "فتاة الشرق" وألقت المحاضرات بالقسم النسائي بالجامعة المصرية (1911 - 1912)، وكانت لها دراسات هامة في الأخلاق والتربية، وظلت تصدر مجلتها حتى قضت نحبها.²⁸

وإذا كنا بصدد الحديث عن الشخصيات العلمية النسائية في أوائل هذا القرن، لا نستطيع أن نغفل ذكر السيدة نبوية موسى التي كانت رائدة تعليم البنات في مصر، وشغلت العديد من المناصب التربوية، وحاضرت بالقسم النسائي بالجامعة المصرية، وتبنت منهجا تربويا معينا حاولت إقناع وزارة المعارف بتطبيقه، فلما عجزت عن ذلك أثرت الإستقالة ونزلت إلى ميدان الكفاح العلمي، فأنشأت عددا من المدارس النوجية الخاصة لتعليم البنات، ونجحت في رسالتها نجاحا باهرا²⁹.

ومع دخول المرأة المصرية إلى رحاب الجامعة، شهدت الثلاثينات من هذا القرن تخرج أول محامية مصرية (نعيمية الأيوبي)، وأول طبيبة مصرية (كوكب ناصف) أصبحت مديرة لإحدى المستشفيات الكبرى بالقاهرة عن جدارة واستحقاق، ووصلت بعض الخريجات الأوائل إلى عضوية هيئة التدريس بالجامعة، وأصبح في مصر أول المهندسات والصيديات في العالم العربي، بل كان من بين المصريات من أثبتن وجودهن في دراسة الطاقة الذرية (سميرة موسى)، ناهيك عن الكاتبات اللاتي إشتهرن في الأربعينات كأهنية السعيد وإنجي رشدي وعائشة عبد الرحمن (بنت الشاطي) وإيزيس فهمي ومرسيان اللوزي وغيرهن من الأدبيات اللامعات.

وإذا كانت المرأة المصرية قد استعادت - بخطى وثابة - مكانتها الاجتماعية بفضل إنكسار طوق الحريم الذي شل حركتها وتركها فريسة للجهل لما يزيد على أربعة قرون، وعادت إلى التعليم بعد إنقطاع طويل، فإنها أثبتت وجودها في التعبير عن موقفها من قضية التحرر الوطني، فلعبت المرأة المصرية المتعلمة دورا إيجابيا في ثورة 1919، وأثبتت وجودها على صعيد العمل السياسي والاجتماعي بعد أن كانت قابعة في عقدرها.

وفي عام 1923، أسست السيدة هدى شعروى "الاتحاد النسائي المصري"، وطالبت بإلغاء الحجاب وإصلاح قانون الأحوال الشخصية الذي ينظم الزواج والطلاق وتحسين الوضع الاجتماعي للمرأة، وتحقيق المساواة بينها وبين الرجل في شتى الميادين بما فيها الميادين السياسية والإقتصادية. وركز الإتحاد إهتمامه على التوسع في تعليم البنات، وبدأت المطالبة بمنح المرأة الحقوق السياسية في أعقاب الحرب العالمية الثانية، حين نظمت جمعية "بنت النيل" برئاسة درية شفيق المظاهرات لهذا الغرض في مطلع الخمسينات.

وكان للمثقفات المصريات دورا رائدا في الحركة النسائية العربية والشرقية، كما أقمن الصلات مع الحركة النسائية الدولية، فظمن المؤتمرات في مصر وخارجها لبسط المطالب العامة للحركة النسائية.³⁰

وهكذا استعادت المرأة المصرية دورها الهام في الحياة العلمية، وكشفت عن معدنها الأصيل الذي يستمد أصلته من التراث الحضاري المصري، على مر العصور وتعاقب الدول، منذ بدأت مصر تخط الحروف الأولى في تاريخ الحضارة

²⁷ نمر رضا كحالة: إعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، ج5، ص 74.

²⁸ نفس المرجع، ص 33.

²⁹ درية شفيق: المرأة المصرية من الفراغة الى اليوم، ص 92.

³⁰ للمزيد من التفاصيل حول الحركة النسائية في مصر، انظر: منيرة حسني: أيام في الهيئات النسائية، القاهرة د.ت.، أماني فريد: المرأة المصرية والبرلمان، القاهرة 1947، أحمد طه: المرأة، كفاحها وعملها، القاهرة 1964.

الإنسانية، حتى عادت لتنفس عنها غبار التخلف وتلحق بركب الأمم المتحضرة في عصرنا الحديث، عصر النور والعلم، الذى حققت فيه التكنولوجيا تقدما سابقا الزمن.

وإذا كانت المرأة المصرية اليوم تساهم في شتى ميادين العلم والثقافة بجهود بناءة فلاغرابة في ذلك، لأن ما تفعله اليوم امتداد للأمس البعيد الذى حفظ فيه التاريخ أسماء مصريات عظيمات لعين دورا هاما في نشر العلم والمعرفة، وكانت لهن في ميدانها صولات وجولات، ومساهمات لا تنكر خلدتها التاريخ بحروف من نور.

المراجع

- إجلال خليفة الحركة النسائية الحديثة، قصة المرأة العربية على أرض مصر، القاهرة 1973.
- أحمد عزت الكريم، تاريخ التعليم في عصر محمد على، القاهرة 1936.
- بترى فلندر، الحياة الاجتماعية في مصر القديمة، ترجمة حسن محمد جوهر وعبد المنعم عبد الحليم، القاهرة 1975.
- حسن ابراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية، القاهرة 1958.
- خطاب عطية على، التعليم في مصر في العصر الفاطمي، القاهرة د.ت.
- درية شفيق، تطور النهضة النسائية في مصر، القاهرة 1945.
- المرأة المصرية من الفراعنة إلى اليوم، القاهرة 1955.
- رفاعة الطهطاوى، المرشد الأمين للبنات والبنين.
- زينب محمود محرز، تقرير عن تعليم الفتاة في الجمهورية العربية المتحدة، القاهرة 1968.
- شمس الدين السخاوى، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع.
- عبد الغنى محمود عبد العاطى، التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك، رسالة مجاستير غير منشورة، كلية الآداب جامعة القاهرة.
- عبد المنعم الجميعة، الجامعة المصرية القديمة، نشأتها ودورها في المجتمع، القاهرة 1980.
- عمر رضا كحالة، أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، الجزء الخامس.
- فتحية محمد، بلاغة النساء في القرن العشرين، القاهرة د.ت.
- كلوت بك، لمحة عامة إلى مصر، الجزء الثانى.
- لوبيس عوض، تاريخ الفكر المصرى الحديث، الجزء الثانى، كتاب الهلال.
- ماهر حسن فهمى، قاسم أمين، سلسلة أعلام العرب.
- محمد عبد الرحيم غنيمه، تاريخ التعليم الجامعى فى الإسلام، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب جامعة القاهرة.
- محمد عطية الأبراشى، مكانة المرأة فى الإسلام، القاهرة د.ت.
- وزارة الثقافة والإرشاد القومى، تاريخ الحضارة المصرية، جزآن.
- وليم نظير، المرأة فى تاريخ مصر القديم، القاهرة 1965.